جامعة الانبار

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم: العلوم التربوية والنفسية

مادة: علم النفس السريري

مرحلة: الثالثة

التدريسي: أ.م.د. فؤاد محمد فريح

محاضرات مادة علم النفس السريري

الأمراض والإضطرابات النفسية والعقلية: لمحة تأريخية

مرحلة العصور القديمة

إن موضوع الأمراض والإضطرابات النفسية والعقلية من المفاهيم التي حظيت بالإهتمام منذ أقدم العصور، وإن كان ذلك ليس بالمصطلح المعروف لدينا في الوقت الراهن، فقد عرف الإنسان المرض النفسي منذ أن وجد على أرض المعمورة، وقد أدلى كل من الكهنة والفلاسفة والمفكرون والأطباء ورجال الدين على مر العصور بدلوهم في فهم وتشخيص بل وحتى علاج المرض النفسي والعقلي.غير إن النظرة السائدة في العصور القديمة إلى طبيعية الأمراض النفسية والعقلية كانت غير منصفة لهذه الفئة من الناس، فقد كان يُنظر إلى الأمراض النفسية على أنها شراً مستطيراً وإنها ناتجة عن عقوبة تسلطها الآلهة على البشر جرّاء إرتكابهم الآثام أو سيطرة الأرواح الشريرة على النفس البشرية، وإذا ما حدث الشفاء من تلك الأمراض وزالت الأعراض، فإنما ذلك يعود –حسب وجهة النظر السائدة آنذاك– بالدرجة الأساس نتيجة لرضا تلك الآلهة وخروج تلك الأرواح، لذلك كان المرضى يُحرقون في الشوارع ويُنظر إليهم على إنهم أناس منبوذين، وكثيراً ماكانوا يُقتلون تخلصاً منهم ومن الأرواح الشريرة التي تعتريهم (انظر صورة 1).

صورة 1 توضح إحدى مراحل التعامل مع المريض النفسي

تطور هذا الفرع نوعاً ما خاصة بعد أراء "ألكميون Alcmeon" 500–550 ق.م. والذي يعتبر من الفلاسفة الأوائل الذين أدعى إن المخ هو مركز العقل وإن الإضطرابات التي تصيب المخ هي السبب وراء الإصابة بالأمراض والإضطرابات العقلية. ثم كانت الإنتقالة ذات الأثر البارز في فهم وتفسير

طبيعة الأمراض العقلية على يد "هيبوقراط Hippocrates" 375–460 ق.م. ليؤكد أن الدماغ عضواً مركزياً للعمليات الذهنية وأن الأمراض النفسية لها أسبابها الطبيعية التي يمكن أن تعود إلى مرض يصيب الدماغ، فضلاً عن إن الدماغ يحتوي في تلافيفه على مناطق محددة هي مناطق اللذة، المرح، الميل إلى اللهو، وما إلى ذلك من مصادر تثير سعادة الفرد. من جهة أخرى فان الدماغ يحتوي على مناطق للحزن، الأسى، الإمتعاض، وما إلى ذلك من مصادر تثير حزن الفرد. يرى "هيبوقراط" أن تعرض الدماغ إلى أي عطب في أحد هذه المناطق يوقع الفرد في ما يسمى بالجنون والهذيان. كما ناقش "أفلاطون" 380 ق.م. مفهوم العقل والكائن البشري وحاول إثارة الإنتباه إلى أهمية أحلام المريض في فهم طبيعة المرض الذي يعاني منه، وأنه يجب التركيز على أهمية المعاملة الإنسانية مع المريض من أجل التوصل إلى علاج المرض. أما"أرسطو" فقد أهتم اهتماماً كبيراً بأثر العوامل النفسية كالإحباط والصراع النفسي في فهم طبيعة الأمراض العقلية، لكنه سرعان ما تخلى عن هذه الأفكار وأتبع أفكار ونظرية "هيبوقراط" فيما يسمى "بالصفراء" التي تولد الرغبات الجنسية وقد تدفع الفرد إلى الإنتحار. أما "جالينوسGalen" 130–200 م فقد أعتقد بوجود أربعة أمزجة في الجسم هي المسئولة عن الإصابة بالأمراض النفسية والعقلية، فالزيادة في سائل السوداء على سبيل المثال يؤدي إلى الإصابة بالكآبة، وعند إزدياد حرارة هذا السائل تتحول الكآبة إلى الهوس (Mania). كذلك فإن المرض النفسي قد تكون له أسباب نفسية أخرى كالخوف والصدمات المتكررة.

أدى سقوط الحضارتين اليونانية والرومانية والحروب الطاحنة وتفشي الجهل إلى تعرض أغلب العلوم إلى نوع من الإنهيار في منظوماتها وتفسيراتها العلمية، وهذا ما حصل فعلاً في تفسير طبيعة الأمراض النفسية. عادت تفسيرات السحر والشعوذة إلى الساحة بقوة وضعُفت قوة الأطباء في معالجة الأمراض النفسية وحل محلهم رجال الدين (الكنيسة) بسبب التعصب الديني آنذاك.

مرحلة ظهور الإسلام

على الجانب الآخر أدى ظهور الإسلام إلى إنكار العديد من التقاليد والعادات التي كانت منتشرة في ذلك الوقت وقدم رؤية أعظم شأناً وأكثر تأثيراً من خلال الإستشفاء بالقرآن الكريم. وقد برع علماء العرب في تفسير جوانب الأمراض النفسية والعقلية وكيفية حدوثها، فكان "الرازي" يرى أن الأمراض بشكل عام تكون ناتجة عن أسقام نفسية مثل الحزن والغضب، وإن أعراض جميع الإضطرابات التي يخبرها الفرد تكون على وجهين: عارض جسدي وعارض نفسي. من خلال هذا التوجه برز فلاسفة أطباء كان أبرزهم "إبن سينا 980–1037م". كان تركيز إبن سينا بالدرجة الأساس على النفس وتأثير الإنفعالات

والعواطف فيها، كما اهتم بمراحل الإدراك العقلي وطريقة إنتقال الصور والخبرات إلى ذهن الفرد، كذلك فقد تطرق إلى مواضيع أخرى مثل الإستجابات الوجدانية والإنفعالية للإنسان مثل الضحك والبكاء وغيرها، إلا إن أهم مايميز كتابات إبن سينا هو تأكيده على العلاقة الوطيدة والوثيقة بين الأمراض الجسمية والحالة النفسية التي يمر بها الفرد، وقد أشار إلى أن هناك العديد من الحالات النفسية غير المستقرة التي يمر بها الفرد والتي تؤثر على صحته الجسمية وبالتالي تؤدي إلى نشأة مجموعة من الامراض ذات المصدر المجهول وهو مايطلق عليه حالياً الطب النفسي الجسمي. كما برز علماء آخرين مثل الفارابي الذي إهتم بعلم النفس الإجتماعي من خلال تركيزه على مواضيع السمات والأنماط السلوكية ومفاهيم الجماعة وتمساكها وأسس بنائها السليم، كما إهتم الفارابي بمواضيع ذات أهمية بالغة في تطور أسس العلاج النفسي للمشاكل النفسية والإضطرابات الوجدانية. أما الغزالي فقد إنصبت إهتماماته على موضوعات علم النفس كالإنفعالات النفسية والسلوكية ومنها الغضب والخوف وآثارها النفسية والجسمية المتبادلة وتأثيرها النهائي في سلوك الفرد، كما ذكر طبيعة علاقة الحالة العاطفية والجدانية للفرد من حب أو كره ومدى تأثيرها في السوك الشخصي، بالإضافة إلى دراسة الدوافع بشقيها الأولي والثانوي (عامود، 2001، ص53).

مرحلة عصر النهضة

وفي أوائل عصر النهضة حققت العلوم الطبيعية والعلوم الطبية تقدماً سريعاً وملحوظاً وظهر في الغرب رجال تحررت عقولهم من ظلمة الجهل التي كانت مخيمة فترة طويلة من الزمن، وبدؤوا يولون إهتمامهم وعنايتهم نحو البحث في أسباب الإضطرابات النفسية والعقلية. في هذه الأثناء وجدت آراء أبوقراط في الطب طريقها إلى الإنتعاش من جديد. يعتبر الفيلسوف الأسباني جوان لويس فيف (Juan Luis Vives) من رجال النهضة الأوائل الذين عنوا بدراسة دوافع السلوك الإنساني . وذهب بارسيليوس (Paracolsus) (1493–1541م) وهو طبيب معاصر ل"جوان فيف" إلى إن للإضطرابات النفسية والعقلية أسباباً نفسية، وأفترض وجود قوة مغناطيسية في الجسم، وهذا هو أساس ما جاء به مسمر (Mesmer) فيما بعد، ولم يستطع الكثير من الأطباء أن يهتدي إلى وجود علل عضوية يمكن أن تفسر الإضطرابات النفسية والعقلية، ومن ثم ابتدأ عدد من الأطباء يرون أن أغلب الإضطرابات النفسية والعقلية إنما ترجع إلى أسباب نفسية لا عضوية، وقد مهّد هذا لظهور المدرسة النفسية التي يرجع تأريخها إلى آنتون مسمر (Anton Mesmer) (1734–1815م) الطبيب النمساوي الذي نادى بوجود مادة مغناطيسية سماها (المغناطيسية الحيوانية).وفي 1822 كان الطبيب النفساني "بيل" قد وصف

الشلل المستفحل لدى المريض وصفاً دقيقاً وقام بمحاولة علمية أولى لتصنيف الأمراض النفسية أدت به إلى أن يتعرف على أعراض الأوهام والهلوسات وأهميتهما البالغة في تدهور الحالة العقلية للفرد. كما قام بذكر تشخيصات طبية لأمراض وإضطرابات نفسية أخرى تحقق منها هو أيضاً. كذلك تأكيده على دور العوامل البيئية في نشأة الاضطرابات الذهانية لدى الأفراد.

المرحلة الحديثة

وكان جيمس بريد (James Braid) (1795–1860م) الطبيب الإنجليزي أول من أكتشف أن التنويم المغناطيسي ظاهرة نفسية بحته يمكن إحداثها من دون إستخدام المغناطيس أو أي مادة طبيعية أخرى، وتمكن الطبيبان ليبولت (Liebault) (1825–1904) وبرنهايم (Bernheim) (1837–1919) من أن يكتشفا العلاقة بين الهستيريا والتنويم، ويكونا نظرية تقول بأن الهستيريا والتنويم يحدثان نتيجة الإيحاء، كما أرجع بيير جانيه (Pierre Janet) (1859–1947) الهستيريا إلى التجارب الخاصة التي يتعرض لها المريض في حياته السابقة وقد إهتمت المدرسة الفرنسية بوجه عام بالعوامل النفسية المسببة للهستيريا وأعطت الإستعدادات المزاجية دوراً أكبر مما تستحق، وأقتصرت دراساتها على الصدمات التي تحدث خلال مراحل المراهقة ومن ثم تأثيراتها المحتملة في المراحل اللاحقة (المقصود بها مرحلة الرشد والشيخوخة).

وفي أوربا عامة تطورت النظرة نحو المرض النفسي والعقلي وبدأت النظرة تأخذ منحى مختلف تماما عما كان سائداً في الفترات السابقة. كان ذلك في أوائل القرن التاسع عشر بفضل حملة جديدة قادها الطبيب الفرنسي "فيليب بينيل" والطبيب الألماني "جريسنجر" الذين كانا يصران على وجوب إسعاف هؤلاء المرضى بالعلاج المناسب وتوجيه العناية إلى النواحي الجسمية والنفسية في حالة نشوء الأمراض العقلية، ومنذ ذلك الحين بدأت النظرة تتغير تجاه المرض النفسي والعقلي بل وتجاه المرضى أنفسهم، حيث بدأ الناس ينظرون إليهم على أنهم أناس يحتاجون فعلاً إلى علاج. أدى هذا التوجه إلى مطالبة العلماء بتحويل السجون التي كان يُحتجز فيها المرضى النفسيين والعقليين إلى مستشفيات للعلاج، وبالفعل تم ذلك. كان إنشاء تلك المستشفيات المتخصصة بالطب النفسي ذات أثر كبير في أن تترتب عليه معرفة ضخمة مكنت المختصين من إستنباط نتائج ناجحة ذات أثر كبير في تفسير العديد من الإضطرابات النفسية والعقلية فيما بعد.

وفي نهاية القرن التاسع عشر طرأ تقدم ملحوظ في مجال البحوث الخاصة بفسلجة الجهاز العصبي وتشريحه والتعرف على الوظائف الخاصة، الأمر الذي أفضى فيما بعد إلى إكتشاف الوظائف الحركية في أنحاء أنسجة الجسم المختلفة، كما أدى إلى التعرف على الإنعكاسات الحاصلة في الجملة العصبية

من الجسم، الأمر الذي أدى في النهاية إلى تقدم واضح في شتى مجالات علم النفس عامة والطب النفسي بشكل خاص بفضل جهود علماء من شتى أنحاء العالم منهم على سبيل المثال:

1- أعمال الطبيب الروسي "بلنسكي" الذي قسم الأمراض العقلية إلى أمراض عصبية وإضطرابات عقلية.

2- أعمال "كاندنسكي" الذي أدخل موضوع التحليل الفسيولوجي في تشخيص الإضطرابات العقلية.

3- أعمال وبحوث "كورساكوف" الذي إكتشف بعض الأمراض العقلية والنفسية كالذهان العصبي المتعدد الذي ينجم عادة من جراء تعاطي وإدمان الكحول، حتى إن هذا المرض أصبح يعرف فيما بعد بإسم "ذهان كورساكوف". كما إن هناك إنجاز أخر كان قد تحقق على يدي "كورساكوف" وهو التمييز بين نوعين مختلفين من الضعف العقلي: الأول هو الضعف العقلي الولادي والناجم عن تأثير العوامل الوراثية، والثاني الضعف العقلي الطارئ والذي تكون البيئة بمختلف أعراضها وعوارضها هي السبب الرئيسي في نشأته، كذلك ميّز "كورساكوف" بين الضعف العقلي الولادي، وبين ذهان الهوس الاكتئابي.

4- الجهود التي قدمها الطبيب النفساني الألماني "كريبلنKraeplin" الذي قدم أشهر تصنيف للأمراض العقلية وأكد على أهمية وطرق التصدي لمعالجتها للتخفيف مما يتعرض له الكثير من مرضى الإضطرابات العقلية في كل أنحاء العالم.

تشير الأدبيات النفسية إلى أن من بين أكبر الإسهامات في ميدان الطبي النفسي وتقدم الأمراض النفسية والعقلية في التاريخ الحديث هو ما قدمه الطبيب النفساني الألماني "بونهايفر" حول طبيعة العوامل الخارجية التي تبدو على شكل أعراضSymptoms يخبرها المريض فيستشفي منها ومما يكمن وراءها من عوامل داخلية. لكن يحدث أن تُهمل هذه الأعراض وهنا يكون التفاعل فيما بينها فتفضي إلى ما يضر بالصحة النفسية والجسمية للمريض، فتنشأ عن ذلك متلازماتSyndromesتحمل في طياتها أمراضاً عقلية غير محددة، تتخلخل من جرائها قوى العقل، ولاسيما الجوانب اللاشعورية منه. ومن الإسهامات البارزة أيضاًفي مجال الطب النفسي هو مبدأ "بافلوف" الذي يتضمن طبيعة عمل الميكانزمات الفسيولوجية التي تحصل على شكل نشاط فعال في الجهاز العصبي المركزي، والذي ترتب على هذا المبدأ وجود علاقة كبيرة ومؤكدة بين الإضطرابات العقلية والإختلالات العصبية.

وما دمنا بصدد السياق التأريخي حول نشأة الأمراض والإضطرابات النفسية والعقلية، فلابد من الإشارة إلى الأعمال الكبيرة للمدرسة الفرويدية ومؤسسها الطبيب النمساوي "سيجموند فرويد" الذي أستمد أبعاد

نظريته من المشاهدات الإكلينيكية للمرضى داخل عيادته، وأماط اللثام عن الكثير من دهاليز النفس البشرية، كما وأفصح عن العمليات الشعورية واللاشعورية على حد سواء، وعمد على تفسير أحلام المرضى للكشف عن أسباب الأمراض النفسية والعقلية، الأمر الذي به إلى تحليل الأسباب الرئيسية لنشأة تلك الأمراض، وأعطى تفسيراً واضحاً للميكانيزمات الداخلية المسببة لهذه الأمراض.

تشير المدرسة الفرويدية إلى إننا نتعرض وبشكل يومي إلى ضغوط نفسية مختلفة، تختلف الإستجابة لتلك الضغوط من فرد إلى أخر، فبعضنا يحتملها، وبعضنا ينهار، أما القسم الآخر يصاب ببعض الأمراض النفسية والعقلية. يمكن تفسير هذا الإختلاف على أساس الفروق الفسيولوجية بين الأفراد. فطريقة التعبير عن المرض بأعراض خاصة لاشك إنها تعتمد إلى حد كبير على عوامل منها شخصية الفرد وتفاعله مع البيئة، لكن نشأة المرض تحتاج إلى إستعداد فسيولوجي خاص، لذلك فقد فسرت كل شكل من أشكال الإضطرابات العقلية بأنها نتيجة صراع دائم بين تطلعات الشعور وكوافي اللاشعور، فالمدرسة الفرويدية تعتبر اللاشعور مستودعاً تتراكم فيه وتتكتل غرائز عمياء ونزوات هوجاء تنبثق من مصدر الطاقة الجنسية، وهي الطاقة التي تظنها هذه المدرسة فطرية، وترافق مسيرة حياة الإنسان، فتتحكم في جميع نشاطاته طول حياته، لذلك فهي تسيطر حتى على الحياة الإجتماعية للفرد.

إلّا إن وجهة النظر هذه قد طرأت عليها تعديلات أجراها "الفرويديون الجدد" أمثال "كارل يونج"، "الفريد أدلر"، "كارين هورناي"، "إريك فروم"، "هاري ستاك سوليفان" للتخفيف من حدة نظرية "فرويد" عن الجنسية الشاملة الكلية. فيونج مثلاً إختلف عن فرويد وعمد إلى تأسيس مايسمى ب "علم النفس التحليلي" الذي يؤكد على إن سلوك الإنسان تحكمه عوامل جمعية تتمثل في الثقافة الموروثة، وعوامل فردية ذاتية. ينشأ المرض النفسي "العصاب"– حسب وجهة نظر يونج– بسبب إنفصام العلاقة بين هذه العمليات النفسية ونتيجة لعدم تكامل قوة الإرادة لدى الفرد في التوفيق بين حالتي الإنفصام تلك. كما أكد الفرويدون الجدد ومنهم "هورناي، إيريك فروم،و هاري ستاك سوليفان" على العوامل الإجتماعية والثقافية والدور الذي تلعبه تلك العوامل في نشأة الأمراض العصابية، لكنهم إقتصروا دور الثقافة على تنشئة الطفل وتربيته، فكأنهم بذلك أرادوا إبراز دور الثقافة وتأثيرها الكبير على مرحلة عمرية بعينها أكثر من تأثيرها على باقي المراحل العمرية الأخرى.

كما قدمت المدرسة الوراثية–التكوينية والتي يتزعمها "كرتشمر" إسهاما كبيراً في تطور فهمنا لطبيعة الأمراض والإضطرابات النفسية والعقلية في العصر الحديث من خلال دراساتها وتفسيراتها للأمراض النفسية، حيث ترى تلك المدرسة أن الأمراض النفسية تنشأ أساساً نتيجة للتكوين الجبلي لجسم الإنسان، وأن لكل فرد سمات، تبدو ظاهرة في سلوكه، مما يسمح لنا تسميته مريضاً عقلياًبمرض معين، وأن

الفرق بين شخص مريض وآخر سوي إنما هو فرق كمي فقط، بمعنى أن أي مرض نفسي إنما ينجم عن تفاقم في الكم الذي مصدره العاهات الولادية.

إن إسهامات جميع العلماء في هذا المجال– سابقاً وحالياً– قادت جميع المهتمين بمجال الأمراض والإضطرابات النفسية والعقلية إلى الوعي التام بخطر تلك الأمراض والإضطرابات على البشرية والتي لاتقل فتكاً عن أشد الأمراض الجسمية. فقد أشارت الأبحاث التي نشرت مؤخراً إلى أنه يوجد 1–10 أشخاص في الولايات المتحدة الأمريكية يعانون نوعاً من الأمراض النفسية، وإن 13% من الشباب الذين يتم إختبارهم بغية الإلتحاق في الجيش الأمريكي يتبين أنهم غير مناسبين للخدمة العسكرية بسبب إضطرابات نفسية، كذلك فإن واحداً من بين ثلاثة عشر شخصاً يقضي جزء حياته في المستشفيات أو عيادات الأطباء النفسيين، كما إن أموالاً طائلة تصرفها الحكومة الأمريكية سنوياً بسبب تغيب الناس عن أعمالهم نتيجة إضطرابات نفسية. كما يؤكد "جيلمر" نفس الرأي في مدى انتشار وخطورة الأمراض النفسية على الأفراد والمجتمع عند إشارته إلى أن واحدة من كل ثلاث عائلات فيها –على الأقل – واحداً من أفرادها يعاني مشكلة انفعالية خطيرة، وأن نصف أسرة المستشفيات في الولايات المتحدة الأمريكية يشغلها مرضى عصبيون ونفسيون. كما يضيف جيلمر أن هناك من البيانات ما يشير إلى أن مشكلة الأمراض والإضطرابات النفسية في أوروبا لها نفس الخطورة والحدة. وعلى الرغم من عدم توافر بيانات مماثلة عن الواقع العربي والعراقي بشكل خاص إلا أن التوقعات تشير إلى تزايد إنتشار وخطورة هذه الأمراض والإضطرابات النفسية. لذلك فان العالم أصبح يدرك وبشكل جلي مدى خطورة وجدّية الإضطرابات النفسية والعقلية على البشر وما يمكن أن تخلفه من آثار طويلة المدى عليهم مما يسبب هدر للطاقات البشرية في شتى مجالات الحياة.